

دلالات الشخصيات النسوية في رواية "الميراث"

تبسم جان

باحثة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، سرينغر

التقديم

تعد رواية "الميراث" من أجمل روايات سحر عدنان خليفة في المرحلة الواقعية الاجتماعية التي كتبتها بوعي نسوي تجاه القهر الاجتماعي. حيث استمدت أحداث هذه الرواية من الوقائع والحادثات التي رأتها الكاتبة في حياتها المضطهدة والتي واجهتها في مجالات مختلفة خلال فترات حياتها الماضية حينما كانت طفلة صغيرة في بيت أبيها وحينما كانت زوجة بعد بلوغها، وعبرت خلالها عن الطبقة النسوية المضطهدة مشيرة إلى معاناتها في الحياة الاجتماعية والعائلية ومآسها المتعددة في ظل العائلة الفلسطينية التي تعاني قهر الجهل والقمع الصهيوني. ومادامت الكاتبة سحر خليفة تحمل هم المرأة في معظم رواياتها وأعمالها الأدبية. وأما هذه الرواية تحديداً، فإنها قدمت في هذه الرواية مجموعة من الشخصيات النسوية اللواتي يعانين أضعاف ما يعاني الرجال في أية أسرة كي يبدو لنا وضع المرأة في المجتمع الأبوي ولو كان هذا المجتمع نفسه تواجه الفادحات والرزايا. فيمتد زمن هذه الرواية إلى فترة ما بعد دخول القوات الإسرائيلية إلى المدن العربية في الضفة الغربية وقطاع غزة (١)، وإنّ التحليل الموضوعي يهديننا إلى أن الكاتبة فازت في هدفها خلال الشخصيات النسوية النقل شحنة كبيرة من وعيها عن الوجود النسوي الذي تعانيه في المجتمع الفلسطيني.

الشخصيات النسوية البارزة:

قدمت الكاتبة في هذه الرواية أربع شخصيات نسوية فلسطينية شغلت الحيز الكبير من الرواية في بنية سردها.

شخصية زينة

تبدأ الرواية بشخصية "زينة" الفتاة الجميلة التي ترعرعت وعاشت في أمريكا مع والدها العربي ووالدتها الأمريكية. قد عانت أمها معاناة شديدة من قبل زوجها عندما

علم زوجها أنها كانت حامله قبل الزواج وهي في الخامسة عشر من عمرها فقط، وبعد مرور بضعة شهور على معاناة أمها من قبل زوجها أجبرت على ترك بيت زوجها لكي تعيش عيشة متحررة من المعاناة الازدواجية والشدائد العائلية، ولما انفصلت أم زينة عن زوجها عاشت زينب مع أبيها في أمريكا، وسمعت من أبيها الفلسطيني حكايات عن فلسطين وثقافتها العربية كما أنها سمعت منه أحاديث عن ضرورة محافظة عرض المرأة، غير أن الحضارة الغربية ربت زينة على تربية أمها حيث عندما كانت في إحدى الجامعات الأمريكية نشأت بينها وبين أحد صديقها علاقة عاطفية جنسية حتى أنها حملت على غرار أمها بطريقة غير شرعية، وهربت من مخافة أبيها إلى جدتها الأمريكية (ديبورا) التي حمّتها من محاولة قتلها وعاشت زينب في ظل جدتها الأمريكية حياة مخيفة ونادمة على فعلها، ثم أنجبت هناك طفلا وأعطته لأحد مراكز التبني في أمريكا، لتواصل حياتها العادية دون أن تقيم أي علاقة عاطفية أو جنسية. ثم عادت زينة إلى "وادي الريحان" بفلسطين لرؤية أبيها الذي كان على فراش الموت، وعندما وصلت زينة في وادي الريحان بفلسطين قابلت زوجة أبيها الجديدة التي كانت ترغب بالميراث بعد وفاة زوجها، وأجبرت زينة للعودة إلى أمريكا كي لا تجد الميراث من مال أبيها المتروكة^٢. قدمت الكاتبة سحر خليفة من تقديم هذه الشخصية النسوية قضيتين مهمتين من قضايا المرأة، فالقضية الأولى التي طرحتها الكاتبة من خلال هذه الشخصية هي قضية مسؤولية المرأة للاحتفاظ بنفسها وسمعة عائلتها مشيرة إلى الفوارق بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، حيث أن والد زينة الذي كان عربيا فلسطينيا ينصح زينب للاحتفاظ على عرضها قائلا: "اسمعي يا زينة، أهم الأشياء بالدنيا: السمعة الحسنة ومخافة الله واليوم الآخر... إنما الحياة عبرة وموعظة بينما كانت أمها الأمريكية قامت بتربيتها على العكس من ذلك حتى أنها فعلت ما فعلت أمها وهي في الخامسة عشر من عمرها ولذلك عندما حملت زينة بطريقة غير شرعية هربت إلى جدتها الأمريكية مخافة من والدها وعارا من مجتمعها العربي.

وأما القضية الثانية التي طرحتها الكاتبة من خلال هذه الشخصية فهي قضية

حرمان المرأة من الميراث ولعل هذه هي القضية الوحيدة التي امتازت به هذه الرواية من الروايات الفلسطينية النسوية الأخرى، حيث أننا لم نجد أي كاتبة ولا كاتب فلسطيني يتحدث عن هذه القضية في أعمالهم الأدبية. اكتشفت لنا هذه القضية في هذه الرواية عندما تعود زينة من أمريكا إلى وادي الريحان بفلسطين كي تلاقي بوالدها الذي كان مريضا وكاد أن يموت في هذا المرض، وعندما وصلت زينه في وادي الريحان لرؤية أبيها أجبرتها "فتنة" وهي زوجة أبيها الجديدة وعائلة عمها جميعا للرجوع إلى أمريكا خائفا من نيل نصيبها في الميراث، إذ قالت زوجة أبيها الجديدة مخاطبة لزينة: "بس أنت بنت، لولا النصيب كان عوضته وجبت لكم ولد. الولد يحجب الميراث. كما قال عمها مخاطبا لفتنة "يمكن تنجبي (أي فتنة) لنا ولد يحمل اسمه يورث اسمه ويورث ماله"⁽³⁾. لقد اتضح لنا مما سبق أن زينة كانت وارثة حقيقية لمال أبيها المتروكة حيث إنها كانت بنتا وحيدا لأبيها، غير أن زوجة أبيها الجديدة وهي فتنة وعائلة عمها جعلت أخا آخر وهو غير المولود وارثا حقيقيا لمال أبيها بعدما أعلنت فتنة حملها به. ولعل الكاتبة تحاول من تقديم خلال هذه القضية ظاهرة تعظيم الذكر وتهميش الأنثى مشيرة إلى ما عانت بنفسها منذ الولادة. لقد حققت لنا مهارة الكاتبة في تقديم هذه القضية بصورة واضحة حيث إنها جعلت قضية ولادة الابن أمرا متناقضا بين المجتمع والعائلة حتى كان الناس يناقشون عن هذا الموضوع قائلين: "هذه مكيدة، عملتها لتحجب الميراث". تحولت الكاتبة سحر خليفة ولادة الابن التي تكون باعثة البركة والسرور في المجتمع إلى شيء مكروه حتى أصبحت في آخر الرواية مصيبة كبرى، حيث ماتت فتنة في نهاية الرواية لكنها ما زالت تقول لأُمها أميرة: "إني سعيدة ومحظوظة لأنه الولد اللي ببطني رح يورث لوحده من غير شريك. الحمد لله وحداني ذكر وما عنده غير أخت وحيدة، رح يورث كل شيء، كل شيء"⁽⁴⁾. ولعل هذه المكالمة سخرية إلى أبعد حد لأن فتنة ماتت أخيرا بسبب ولادة المفاجئة، وكانت أميرة أم فتنة تحمل حفيدها بلا شعور حتى تمديد يديها للجندي الإسرائيلي بالطفل بهدوء.

يتضح لنا من تحليل هذه الشخصية أن الكاتبة سحر خليفة قدمت من خلال

هذه الشخصية قضايا مهمة واجهت المرأة العربية في أمريكا ومن أهمها قضية احتفاظ عرضها من التورط في العلاقات الجنسية غير المشروعية، وصورت من خلال هذه القضية الفوارق الكبرى بين الثقافة العربية والثقافة الغربية من منظور هذه الشخصية ذات التربية الأمريكية التي اندمجت في طمها عدة ثقافات، مكتشفة سلبيات الحضارة الغربية وإيجابيات الثقافة العربية، فعلى سبيل المثال عودة زينة إلى وادي الريحان في فلسطين للبحث عن أبيها إنّما كانت للبحث عن القيم الروحية^٥ وهذه القيم إنّما توجد في الشرق. ومن هذه الإيجابيات أيضا الحنان والرحمة التي يتمتع بها الإنسان في المجتمع العربي الساذج فتقول زينة عند وصول رسالة عمها " ...ولم أضع وقنا طويلاً في التفكير، بل اتخذت قراري بلا تردد وأحسست ساعتها إني أقف أمام نافذة خلف ستائرها تكمن ملامح البلد الذي طالما حلمت برؤيته وحنان الأهل الذين فقدتهم منذ الطفولة، ودف الانتماء إلى جذور بحثت عنها بلا طائل... " كما أن الكاتبة قدمت من خلال هذه الشخصية مشاكل المرأة العربية التي تواجهها في المجتمع العربي ولا سيما الفلسطيني ومن أهمها قضية سلب حق الميراث وتهميش الأنثى وتعظيم الذكر وتحقيق الذات حيث عادت زينب إلى وطنها الأصلي فلسطين بحثا عن الذات ورؤية لأبيها المريض، بينما كانت تسكن مع جدتها الأمريكية إنقاذا عن العار ومخافة من أبيها، ففي قيامها مع جدتها الأمريكية تأثرت بكثير من أفكارها حول الحياة مما جعلتها امرأة قوية متفوقة باحثة عن الذات والفردية وهاربة عن القيود البالية وناجحة في معظم الأمور الدنيوية على نحو ما نعرف من هذا الاقتباس الروائي: " لكن ما حدث هو أنني كلما أصبت نجاحا طلبت المزيد. النجاح كان أن أثبت ذاتي حتى فقدت الإحساس بالآخرين^٧ .

شخصية "نهلة حمدان"

وأما الشخصية الثانية النسوية في الرواية فهي شخصية "نهلة حمدان" ابنة عم زينب، كانت هذه الشخصية نموذجة للمرأة المجاهدة والعاملة العانسة، حيث أنها كانت في الخمسين من العمر وقضت نحو ثلاثين عاما في الكويت كمعلمة ومدرسة في

إحدى مدارسها، وساهمت من خلالها في تحسين وضع عائلتها الفقيرة المتكونة من أب وخمسة إخوة، إذ ساعدت إخوتها على أن يتعلموا في الجامعات والكليات حتى أصبح بعض منهم مهندسا والبعض الآخر معلما وأستاذا وطيبيا، أنها كانت تعمل من أجل تعاليمهم بعد وفاة أمها عملا جادا حتى نسيت نفسها وأنثويتها إلى حد أنها بلغت خمسين من العمر عانسة وعارية من الزوج وتذكرتها أنثويتها ونفسها عندما طردت من الكويت خلال حرب الخليج وجلست في بيت أبيها عاطلة عن العمل وناظرة إلى أيدي الإخوة الأربع الذين كانوا يعيشون مع أولادهم وزوجاتهم عيشة ترف ورغد في مباني عالية وقصور شامخة منصرفين عن أختها ورغباتها ومعكفين على حوائج بيوتهم وملابس زوجاتهم وأولادهم. وعندما يئست نهلة حمدان من إخوتها الأربع أنشأت علاقة عاطفية ودية مع "أبي سالم" السمسار الذي كان يقارب نحو سبعين عاما من العمر والذي كان متزوجا، له أولاد بعضهم يبلغ من مثل عمر نهلة حمدان. وعندما اطلع إخوتها على هذه العلاقة أوقفوا عقبات وعائقات كبيرة في طريقها مطالبين منها بصرف المزيد من بقايا مدخراتها لأجلهم ولأجل أولادهم وزوجاتهم، غير أن نهلة حمدان شعرت أنهم ينكرون عن هذا الزواج لأغراضهم الدنيوية ومصالحهم الذاتية وأهدافهم الاقتصادية، ولذلك أنها كانت مصرة على هذا الزواج عالمة بأنه ليست لها سوى هذا الزواج أي طريق لعيشة الحياة، وفي النهاية تزوجت بهذا العجوز الكبير يائسة ونادمة على الحياة الماضية وغازبة على إخوتها الأربع الذين لم يعطوها حق المرأة والأخت بالرغم من أنها قضت خمسين عاما من عمرها في المكافحة على مساعدة تعاليمهم وحوائج ضرورياتهم ورافضة عرض أخيها "كمال" الذي طالب منها أن تسافر معه إلى ألمانيا لتعيش هناك عيشة هدوء وأمن^١. لقد اتضحت لنا من تحليل هذه الشخصية أن الكاتبة قدمت من خلال هذه الشخصية نموذجة صادقة وصورة رائعة عن المرأة المجاهدة التي قضت حياة كاملة في مساعدة عائلتها وبيتها مشيرة إلى أن المرأة مهما بذلت جهودا جبارة في جميع مجالات الحياة غير أن الرجال لا يعبؤون بقمع الظلم والقسوة عليها سواء أكانت زوجة أم بنتا أم أما أم أختا، ولعل الكاتبة تعبر من خلال

معاناة نهلة حمدان معاناتها التي واجهت منذ الطفولة في بيت أبيها كامرأة مظلومة
بجرم كونها بنتا ليس غير.

شخصية " فيوليت "

هناك شخصية نسوية أخرى وهي شخصية " فيوليت " وقدمت الكاتبة سحر
خليفة من خلال هذه الشخصية صورة أخرى لمعاناة المرأة المتحررة المثقفة التي
كانت تعزف الموسيقى وتكسب معاشها بصالون نسائي كي تعيش مع أمها عيشة هدوء
وأمن وراحة. أنها كانت تقدم جسدها في صياغات السهولة النسائية على سبيل الحب
أمام مجموعة من الرجال معتقدة أنهم كانوا مختلفين عن رجال الواقع، غير أن هؤلاء
الرجال كانوا يتمتعون من سذاجتها وبساطتها بكونها " حلاقة " ولذلك أنها كانت دائما
تفشل في كل مشاريعها وعلاقاتها العاطفية الخالصة، لأن الرجال كانوا يعتقدون أنها
مجرد حلاقة وأن عائلتها ليست من العائلات التي تسمع أصواتها وترفع شكواها إلى
الطبقة العالية من المجتمع والحكام، ولذلك انهم كانوا يريدونها جسدا مومسا وتمتعا
مؤقتا بلا ثمن وفائدة، وعندما أحست أن الرجال كانوا يستغلونها بكونها حلاقة وامرأة
فقيرة من حيث العائلات قررت للرحيل إلى أمريكا كي تعيش هناك عيشة متحررة بعيدة
عن استغلال الرجال ومتخلصة من عقد الذكورية الخبيثة. عبرت الكاتبة سحر خليفة
من خلال هذه الشخصية عن صورتين متناقضتين من صور المرأة والرجال، صورت
في الصورة الأولى معاناة المرأة على أيدي الرجال في جميع مجالات الحياة ممثلة
شخصية فيوليت حيث أنها كانت تعمل كحلاقة وتكسب معاشها بطريقة حسنة غير
أن الرجال كانوا يستغلونها بكونها حلاقة ولا يعبؤون عن مهنتها وسذاجتها وعائلتها
الفقيرة، بل انهم كانوا يتمتعون من جسدها بلا ثمن ويتركونها على حالها بغير خفة
خائف ولومة لائم. وأما الصورة الثانية فهي أن المرأة مهما تكن فاحشة ومتحررة
تشتهي عن صيانة عرضها من الرجال الأغيار، حيث عندما أحست فيوليت أن الرجال
يستغلونها ويريدون جسدها وتديها كي يتمتعون بها ويتلذذون بحسنها هربت إلى أمريكا
متمنية أنها سوف تحصن عرضها من الرجال الأغيار وتعيش عيشة عزة واحترام.

شخصية "فتنة"

إضافة إلى تلك الشخصيات النسوية المذكورة أعلاه نجد في الرواية شخصية نسوية أخرى وهي شخصية "فتنة" زوجة والد زينة الثانية. استطاعت الكاتبة أن تقدم من خلال هذه الشخصية سلب حقوق المرأة العربية في المجتمع ممثلة الصراع بين زينة بنت محمد حمدان وبين "فتنة" زوجة محمد حمدان الجديدة وبين وعائلة عم زينة، حيث عندما لم تنجب زوجة محمد حمدان الأولى (وهي كانت أم زينة) ولدا ذكورا سوى بنتا واحدا وهي زينة حمدان أجبر محمد حمدان على الزواج الأخرى كي تنجب منها ولدا يكون وارثا لماله وممتلكاته الكثيرة، فزوجت من "فتنة" التي كانت مطلقة بسبب عقارها وحده لسانها غير أنها ما اكتشفت أمام حمدان هذا السر مؤمنة بأنها ستكون وارثة في ممتلكاته بعد وفاته. فقضت مع حمدان بضعة سنين عاقرا ومتمنية لنيل وراثته بعد موته. وعندما مرض حمدان وكاد أن يموت في هذا المرض أتت إليه بنتها الوحيدة زينة من أمريكا لرؤية أبيها، فخافت "فتنة" من إمكانية أن تهرب ثروة زوجها من بين يديها، فزرعت في بطنها جنينا من نطفة يهودي في المستشفى، وادّعت أن حملها من نطفة زوجها محمد حمدان وقالت إن هذا الولد سيكون وارثا لمال زوجها، غير أنها ماتت خلال ولادته. وحققت الكاتبة من خلال هذه الشخصية الخادعة رمزية الرواية في الوراثة الصهيونية غير الشرعية في أغلب فلسطين على نحو ما نعرف من هذا الاقتباس الروائي: "إذا كان ميراث زينة هو أرض الوطن، فإن من يمتلك أغلبيته الآن هو كائن إسرائيلي مشوه جاء من نطفة زرعت في رحم فلسطينية"⁹.

ونستدل مما قمنا أن الكاتبة سحر خليفة شكلت في هذه الرواية صور النساء المختلفة في قالب المعاناة والمصائب والكآبة والاستلاب والاعتراب، فكأن الرواية تنتمي إلى الواقعية النقدية التي تجد في الحياة النسائية الشرائح المأساوية والمعاناة العائلية والازدواجية. فالرواية صورة ناطقة عن مآسي المرأة المتعددة ثقافات كن أم حريمات، سواء عشن في بيئة عربية مثقفة أم عشن في بيئة أمريكية متحررة، سواء أكانت متزوجات أم عوانس، عجوزات أم فتيات، حسينات أم قبيحات، فكلهن يعانين اضطهادا عجيبا وافترا كئيبا ومعاناة رذيلة ومصائب كثيرة بوصفهن ضحايا إلى درجة

كبيرة.

الحواشي:

- ١- s//www.abjad.com
- ٢- د. حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١م، ص ٣٣٩
- ٣- سحر عدنان خليفة: الميراث، ط منشورات اتحاد الكتاب العرب، سنة ١٩٩٧م
- ٤- نفس المصدر، ص.
- ٥- مصطفى الضيع، سحر خليفة أيقونة الرواية الفلسطينية، موقع الكتابة الثقافية، almakitaba.com
- ٦- سحر خليفة، الميراث، دار الآداب بيروت ١٩٩٧م ص ١١.
- ٧- سحر عدنان خليفة: الميراث، ص ٢٦
- ٨- غدير رضوان، المرأة في روايات سحر خليفة، ص ١٨٠
- ٩- د. حسين مناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، ص ٣٨٣

* * *